المغالطات في الحجاج

سكوت جاكوبس –جامعة أريزونا

ترجمة : عزيز عماري

عبد الرحمن رحموني

يعد المنطق غير الصوري و المنحى التداولي الديالكتيكي في نظرية الحجاج من الاتجاهات التي عنيت بإحياء دراسة المغالطات في العقود الماضية، حيث ركزت سيرورة البحث على الفهم الموسع عما يجعل بعض الاستراتيجيات الحجاجية مغالطة. وقد فسر ذلك من زاويتين شاملتين استبعدتا منهج التخصيص. وأكد ثلة مِنْ المناطقة غير الصوريين، أمثال دوغ والتن (1995–1998)، أن ما اصطلح عليه بالمغالطاتِ، يعد في الواقع، مسألة منطقية. ذلك أن التقيد بالظروفِ وخصوصيات الحجةِ، مثل استراتيجيات حجّة الميل إلى المراوغة، والمقومات العاطفية، واستعمال السلطة والانتقادات الشخصية، والاحتكام إلى عامة الناس، كل ذلك وما يندرج في زمرته من الإستراتيجيات يمثل نمطا من السيرورات العقلية. ويحتمل وجود أنواع وهمية من القواعد المغالطة كالحجة بالتجهيل، أو الاستنتاجات المتعلقة بالاستدلال الرمزي، وقد يوصف القياس وما يماثله بالقصور حينما يثبت عجز قدرته عن الإثبات. إن الاتجاه العام للوجهة الأولى من التحليل يبالغ في التشكيك المتمثل في أن أصنافا من الاستراتيجيات تصير مغالطة من حيث المبدأ ومستقلة عن ملابسات السياق والرسالة الفعلية المجسدة لنوع الاستراتيجية.

وتقسم المغالطات المبثوثة في الكتب الدراسية المقروءة إلى نمطين. يقدم الأول الأصناف المتباينة من حيث القبول والرفـــض، والقواعـــد المؤكدة أو المقوضة للمصداقية مثل الحجاج بالسلطة أو حجاج التهكم أو الحجة الشخصية، ومستويات متنوعة من المقومات العاطفية

المفسرة لذلك النمط، وليس ثمة أمر مقلق تجاهها من حيث الجوهر، لكن قد تمثل خطرا ناجما عن سوء الاستعمال، و كيفما استخدمت، يفترض أن تحدد عبر قيود ظرفية.

ويتضمن النوع الثاني من المغالطة كل العلامات المضللة من حيث التعريف، إذ الإساءة على سبيل الذكر، تبنى من دلالة العلامةِ ذاتها. وعليه، فالمجرمون يختلقون الأدلة الزائفة ومغالطة تشتيت الانتباه والسذاجة المحددة لما يمتلكون من تغليط ممثل في الدلالة. ومهما طابق التعبير رسالة فعلية فالاستراتيجية تقتضي قيدا ظرفيا لرسالة معية. ومهما امتلكنا التبسيط كله، مثلا، فإنه يحدد بدراسة الحجة ضمن عناصرها المتعلقة بسياق المناظرة. ومهما امتلكنا مغالطة تأكيد النتيجة أو نوعا معتدلا من أنواع الاستدلال، فإن ذلك يقتضي تأويلا محددا للرسالة المرسلة.

لقد بينت نظريات الاستلزام التخاطبي المعمم بعمق طريقة حصول الأفراد على أشياء ضافيـــة من البديهي (من افترضات بسيطة إلى تصريحات)، وافترض المناطقة غير الصوريين أن المغالطاتِ تثبت ذاتها، لا كعناصر معزولة عن سيـــاق التواصل، أو بنيات نص في بعض الكتب الدراسية، بل عمليات سياقية لرسائل معينة.

يتمثل الاتجاه الثاني في إعادة تحليل المغالطات في النظرية التداولية الديالكتيكية (فان اميرن وغروتندورست، 1992). حيث بين المحللون، في هذا الإطار، أن المغالطات تدرك بعمق كأخطاء وظيفية في تعهد لحل خلاف بمنهج عقلاني، وأن العديد من المغالطات التقليدية تشكل مغالطات ذات مسار ثانوي غير مباشر في الكفاية الاستدلالية. والدليل أن إثارة الألفاظ المشحونة تثبت الاستدلال، وأن إشكالها يكمن في عدم تقديم معلومات بقوة الإثبات في الرد على ظنون المستمعين، وأن مسألة التهديدات وصور الحجاج بالقوة، لا تكمن في كفاية الصورة الاستدلالية أو صدق المسلمات، ومثل تلك الاستراتيجيات مضللة لأنها تقيد التداولية النقدية عن حقيقة المضمون السؤال. وإذا كان العديد من الاستراتيجيات الحجاجية مغالطة من الوجهة التداولية الديالكتيكية بفعل خرقها القواعد الإجرائية الموظفة، فإن لدينا نتيجتين جديرتين بالاهتمام منبثقتين من طبيعة التحليل الوظيفي للحجاج.

ولقد نتج عن ذلك، بداية، غياب قائمة من الآليات تستطيع ضبط الأساليب المؤدية إلى الحجاج المغالط، إذ هناك طرق غير محصورة تحدث انزلاقات عن المبادئ أو القواعد المسؤولة

عن إنتاج سلوك غير ملائم. وعليه، لا تتضمن النظرية التداولية الديالكتيكية قيمة ضافية تفسر كيف يولد السلوك السيء (يقتضي ذلك نماذج إيجابية من الممارسات الفعلية). والنظرية تفترض، بنوع من الوضوح والمقبولية، أن السلوك السيء مجال مفتوح من الاحتمالات. وليست هناك فكرة عن الاستراتيجيات الجديدة للأفراد الممكن إنتاجها والوظائف المفترضة والقدرة على الاستعمال والفعل لدى متحاورين يبنون سياقات جديدة للتداول. والرجوع إلى الأنماط التقليديةِ للمغالطاتِ فإنها توفر، ببساطة، جهازا مناسبا لتَفسير سيرورة القواعدِ الحجاجيةِ وقوانين التواصل أو السلوك.

ثانيا، قد يضحى أي نمط مغالط من الاستراتيجية مخلا بطرق شتى وبأساليب مختلفة تعتمد المناسبة السياقية لرسالة معينة. وقد تخفق بعض القضايا المتباينة بفعل الاحتكام إلى السلطة. وقد يعطي الأفراد قيمة مبالغة لرأي مصدر ما، ويخفقون في إثارة أسئلـــة نقدية بالإذعان إلى مصدر السلطة. وقد يغيرون الاستدلال المستنبط من المصدر نفسه زمن التفكير في إثباتها. وقد تقبل كمصادر سلطات مزيفة، أو تستند إلى مصادر موثوقة من حيث المبدأ والواقعية، حيث لا يوجد توافق حول رأي ثابت. وقد يحجب أو يربك الاحتكام إلى السلطة القصد بعيدا عن عناصر أخرى من الدعوى الإقناعية العامة الموظفة بصورة غير قانونية. وعليه، فإن هناك ملابسات تجعل الاحتكام إلى السلطة مسألة عقلية.

وتبعا لذلك، يعد المنحى العام المبين في الاتجاه الثاني من إعادة التحليل كبحا لاستمرار الأنماط ضمن التصنيف التقليدي للمغالطات. وتتمثل نتيجة التحليل الوظيفي للأسلوب الحجاجيِ في أن القواعد المعلومة كأنماط للمغالطة تعرض كمعطى، بل وسيلة لازمة وكافية للنظر فيما إذا صار شيء ما خاطئا بفعل قاعدة حجاجية. إن ما يطلب هو تحليل النسق الوظيفي لكل رسالة خاصة قيد الدراسة، وهو ما يوافق معيار الاشتغال المناسب والكافي لتقييم حمولة المغالطة في قاعدة حجاجية. ونعتقد، في الواقع، أن من المنطق الاستنتاج ما إذا عدت الرسائل مغالطة أَم لا، وليس كل صنف معين يستنبط من السياق الوظيفي للواقعة. وإذا عملنا فعلا على تطوير فهوم حساسة عما يجعل الحجاج فعالا أو سيئا، سنطمح إلى جعل الرسائل نفسها أهدافا للتَنظير والبحث في سيرورة اشتغال الرسائل في سياقاتِ إنتاجها.

لقد اقترح في ما سبق (جاكوبس 1999 – 2000) أن إدراك المغالطات المنبثقة من النظريات التداولية والديناميكية يفيد في تقديم بعض الأوجه البلاغية. ومن اللافت أن منظري البلاغة تجاهلوا إلى حد كبير أشكال المغالطات المضمنة في الخطاب الحجاجي مثلما عنوا تحديدا بدراسة المعضلات الجدلية كجودة التواصل أو التداول في الفضاء العام وطبيعة الجدال وما ساهموا به في بلورة تصورات غير دقيقة في الدراسة التداولية للخطاب بمصطلحات المنهج البلاغي ورؤيته. ونعتقد، رغم ذلك، أن التصورات تستطيع تفسير طبيعة المغالطاتِ برؤية مضبوطة آخذة في الحسبان الشروطَ البلاغيةَ المحدثة للحجاج والأدوات البلاغيةَ المسعفة في تحقيقه.

وتركيز البلاغة الكلاسيكية على مدى تكيّفِ الحجاج مع المستمع خاصة والقيود والحاجيات وفرص السياق يجب الاعتراف به بقوة في التصور التداولي الديالكتيكي للنظريات الحديثة للمغالطة. وفي النماذجِ المثاليةِ يحتمل أن تخضع اقتضاءات إنجاز التداول للمعالجة بالنظر إلى السياقات الحجاجية الوظيفية، وبمدى تأثرها بالقيود الوظيفية للأسلوب البلاغي والنداء التحفيزي. وبالتالي، نظن أن الطبيعة السياقية والوظيفية البلاغية للقصد هي ما يجعل الخاصية النوعية للمغالطات مطلقة و معقدة.

وللنظر في ذلك الارتباط، يمكن العودة إلى بعض الأفكار المقدمة في دراسات قبلية حاججت فيها تصور فان اميرين وغروثندورست حول موضوع الحجاج كصنف من التداوليات المعيارية (فان اميرين وآخرون 1993) واستدللت على أن من نتائج النظر في الحجاج كتداوليات معيارية إعادة التركيز على مفهوم الفعالية الحجاجية .

إن نظريات الحجاج في سيرورتها التاريخية بغض النظر عن اهتمامها بأطر منطقية وديالكتيكية وبلاغية– سعت إلى تحديد الفعالية الحجاجية بهدف استراتيجي موحد وتحققها في صورة الأثر الإقناعي على المستمع. وتضحى الحجج فعالة حينما يعتقد المستمع ويحس وينجز قصودا مؤيدة. وفي حالة التأثير المزدوج يصير الحجاج فعالا عندما تصل الأطراف إلى توافق في الرأي أو تعهد بالعمل المشترك. وبهذا الفهم للفعالية قورب تصور المغالطات وأضحى إشكالية معقدة. المقاربتان الديالكتيكية والبلاغية كلتاهما، مع ذلك، تحتاج إلى أن تقترن بذلك الفهم

الخاص للفعالية. والتأمل، بالأحرى، في كيف تحقق الحجج المقاصد الفردية، والنظر في كيف يمكن أن تنجز المصالح العامة. والناظر في العمل المؤسساتي يجد الحجاج لا يعد، فقط، إنجازا فرديا بل نسقا من الممارسة والتنسيق الاجتماعيين. وعلى هذا الأساس، يطلب من المنظرين في حقل الحجاج العمل في إطار يمكن للحجاج أن يعمل على إبداع وخلق شروط نجاحه. في هذا المستوى، قد لا يقتضي الحجاج الفعال والناجح موازنة المقاصد الإقناعية لأي ممثل معين، وإنما بصياغة قرارات منطقية. ويمكن للإنجاز أن يتزامن مع بعض النتائج الإقناعية. وقد يكون إنتاجا خاصا بالممثلين إلا أنه لا يكون كله كذلك. وكل تصور حول التأثيرِ الحجاجي يعتمد على الأسس البلاغية والديالكتيكية في دراسة الحجاج.

يهتم المنحى الديالكتيكي بالطبيعة المزدوجة للحجاج بتركيز الانتباه على البناء الإجرائي مادام اتخاذ القرار الحجاجي عقلانيا. وإن منطق الحجاج يثبت بالإجراءات التي تزيد من فرص الدراسة النقدية للحجج، والتي تنص على الكشف عن أساس تقاسم الأفكار، وتحفز بصورة ضيقة أو موسعة على استكشاف وجهات النظر المتبادلة، وتوجه الحجاج ضمن امتداد و تعارض استدلالي، وتصقل إبداعية الحجج الدامغة واستنباط الأسس البانية للقرار.

وينبثق تأمين ادعاءات المعرفةِ في النموذج الديالكتيكي من ضمان الآليات أو الإجراءات التي تضحى قابلة للتقييم بتلك الادعاءات. و الحجج الفضلى هي تلك التي تقاوم النقد اللاذع والإجراءات الأقوى تأمينا للحوار هي تلك التي تجعل الأفراد في وضع أفضل. وفي التصور الديالكتيكي، ما يعد حقا في تحديد الحجاج الفعال، ليس مبدئيا ما يؤدي بالأفراد إلى البحث عن دليل ملائم للاقتناع، أو ما يبلغونه بالتوافق المشترك حول رأي ما، لكن إذا وضع الأفراد في موقع الحسم شريطة أن تكون الادعاءات مقبولة منطقيا أو مرفوضة أو لزم ذلك حصول التوافق. إن مسألة فعالية الحجة لا تقتضي بالضرورة أن تكون قضية سواء اقتنع الأفراد بالوسائل المعتمدة أو لم يقتنعوا (والتي هي إطار ضمن إشكال المغالطات المثار قديما). بل يلزم بالضرورة أن تكون مسألة تدفع الأفراد إلى الحسم بصدق في الاقتناع أو عدمه

نعتقد، هنا، أن الرؤية البلاغية يمكن أن تقدم إضافة نوعية. فقد استمدت القدرة العظيمة للتقليدِ البلاغيِ من التأكيد الدقيق على المقتضيات العمليةِ والفرصِ الظاهرة للسياقات الفعلية.

وازدادت عظمتها في إصرارها بأن الشروط الحقيقة هي نقطة الانطلاق ورقي المحللين وأهل المشورة. والتكيّف مع السياق في هذا التوجه- ليس فقط مع المستمع- هو السمة المميزة للسلوك الذكيِ والعقلانِي. كما أن الحجاج العقلاني هو ما يثير الأهم في السياق، ويحسن الإمكانيات المحصلة لا تلك التي تمنينا حصولها. والحجاج المثالي لَيسَ بنية مُجرّدة للخطاب بل هو محسوس وخاص وسياقي وواقعي بالشكل الذي يجعله استجابة ملائمة لظروف حدوثه. إن المفتاحَ هو التعديلات السياقية غير أنها قد تكون في السياق وخارجه، فقد اقترح في عمل سابق أن الخصائص البلاغية للرسائل الحجاجية يمكن النظر إليها كمؤثر في تطوير شروط التداول (جاكوبس، 2000). إن البلاغة الفعالة لا يجب النظر إليها مجرد وظيفة لإقناع المستمع لأنها تستطيع القيام بدورين اثنين، يتمثل الأول في القدرة على الفعل قصد التحكم في شروط التداول نحو الأفضل، ومثال ذلك أن المقومات العاطفية قد تَصلح في الحقيقة لنقل المستمعِ إلى المستوى الذهني الخالص لتمكينه حقا من اعتبار الوضعية السياقية الآنية والقيمة الأخلاقية، ودور الأسلوب البلاغي في بيان البؤرة والمحور، وما يجعل القضايا مدركة وطيعة.

وقد تشتغل البلاغة الفعالة، من زاوية، داخل حدود التداول قصد معالجة الوضع السيئ وملائمته. ونفترضُ أن حججَ السلطةِ تؤدي في أغلب الأحيان تلك الوظيفة حينما يعجز المستمع عن التفكير في إثباتها. كما أن الميل إلى السلطة قد يكون عملا منطقيا لإتمام الافتراض. وأينما فشل المتخاطبون في الوصول إلى الاستدلال والوضوح في عرض المواقف، فإن الحجة المحفزة قد تستعمل بأسلوب غير مباشر لتقييم أي موضع للحقيقة. والملاحظ أن كلتا الإمكانيتين تجعل الوضع ملائما ومتضمنا لنوع من التماثل الوظيفي في المغالطات. والذي يَجْعلُ الاختلافِ بين وجود استراتيجية مقيدة أو بنائية ليست الاستراتيجية في حد ذاتها، بل الأسلوب الذي يتضمن استراتيجية توظف في نص وفق سياق الاستعمال. كما أن سمات الرسالةِ المفترضة قد تكون مضللة حينما تتصور داخل سياق معياري أو نموذجي لتداول مثالي يحدث متفاوتا عندما يبتعد الوضع عن المثالية.

ومضمون الادعاء المقدم في جاكوبس (2000)، في نظرنا، أن منظري الحجاج في حاجة إلى العناية بالبناء الاستراتيجي للرسائل قصد فهم قدرتها على بناء مساهمات معيقة أو قيمة في

سيرورة التواصل التي هي قضية جديرة بالدراسة. إننا في حاجة إلى دراسة آليات اشتغال الرسائل لإضافة أو إسقاط مقبول و إثارة القضايا وتأطيرها، وبناء أو هدم القصد الحواري، وصناعة الوضعيات، واستحضار أو حصر البراهين، وتنشيط أو كبح المواقف والقيم، والفرض والادعاء، والاستجابة أو التجاهل، والقيام بأي من الوظائف الأخرى الملائمة لتحقيق الانخراط أو إبطاله.

إن ما نحتاجه في هذه الدراسة هو طرح سؤالين اثنين حول قوة الرسائل المضللة. سُؤال عن قواعد أو معاييرِ المعقولية المغيبة، وآخر عما يجعل تلك المغالطات تعمل في الواجهة. لقد خصص منظرو الحجاج حيزا هاما للعناية بالسؤالين وإن حصل ذلك بنوع من التباين. ومع ذلك، فقد عنوا بالمغالطات لأنها تميل إلى الفعل وتتجه إلى خداع الأفراد لا لأنها مغالطات تخرق مبادئ الحوار الاستدلالي فقط. ونعتقد جازمين أن عنايتنا بإدراك سيرورة بناء الرسائل مثلما نعنى بطريقة أدائها قد يسعفنا في فهم أفضل لسؤالين هما: متى تشتغل استراتيجيات رسالة معينة بطريقة مضللة ؟ وماذا تشتغل استراتيجيات رسالة معينة بطريقة مضللة ؟

المراجع

–النص المترجم هو مداخلة لسكوت جاكوب من جامعة أريزونا ألقيت في المؤتمر الذي نظمته الجمعية الدولية للتواصل NCA و الجمعية الأمريكية لفن المناظرة (AFA) في موضوع التحاجج في التواصل ، صيف 2001 من شهر عشت ،العدد 1، ص: (40-45)، حيث ناقش الباحث مسار نظرية الحجاج، و التقاليد الديالكتيكية و الخطابية لدراسة الحجاج، و المغالطات في الحجاج.

Jacobs, Scott. Conference Proceedings -- National Communication Association/American Forensic Association (Alta Conference on Argumentation) **. 2001 Arguing Communication, Vol. 1,** p40-45. 6p**.**

-Eemeren, F. H. van, & R. Grootendorst. (1992). *Argumentation, communication and fallacies: A pragma-dialectical perspective.* Hillsdale, NJ: Eribaum.

-Eemeren, F. H. van, Grootendorst, R., Jackson, S., & Jacobs, S. (1993). *Reconstructing argumentative discourse.* Tuscaloosa: University of Alabama.

-Jacobs, S. (1999). Argumentation as normative pragmatics. In F. H. van Eemeren, R. Grootendorst, J. A. Blair, & C. A. Willard (Eds.),*International Society for the Study of Argumentation* (pp. 397-403). Amsterdam: SicSat.

Jacobs, S. (2000). Rhetoric and dialectic from the standpoint of normative pragmatics. *Argumentation,* 74.261-286.

Walton, D. (1995). *A pragmatic theory of fallacy.* Tuscaloosa: University of alabama.

Walton, D. (1998). *Tfie new dialectic: Conversational contexts of argument.* Toronto: University of Toronto

صدور مجلة مغربية جديدة تُعنى باللغة العربية

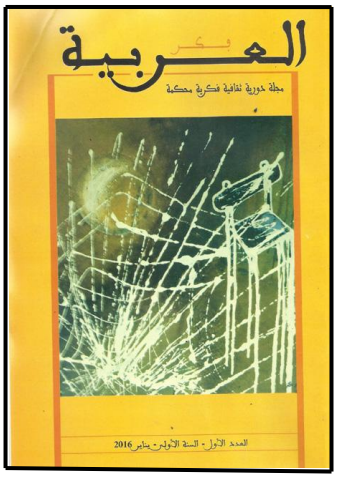

****

صدر للأستاذ خالد بن الصغير